رسالة الشاعر ...

الى المعلم

للشاعر الكبير الأستاذ محمد مصطفى الماحى
مدير قسم الإدارة بوزارة الأوقاف

يخيل إلى أن رسالتى إلى «المعلم» ستكون حبيبة إلى نفسه، قريبة من حسه، مسترسلة فى طواياه، بعيدة الأثر فيما يتصل بصحيحه من أسباب: ذلك أنها رسالة روحية تأتلف إليها ضروب متفرقة من التوجيهات الحافلة بالنفع. ولست أرضى للمعلم — وهو يقوم على إنشاء الدعامة القوية للشعب — أن تفوته هذه الرسالة، ولا أن ينصرف عنها، فهى حقيقة أن تلائم رسالته حين يتصل بالحياة من جانبها اللامع المضىء، وإنى لأعتقد عقيدة الطوية أن يفهم المعلم فى كثير من اليقين، أن أولئك الذين هيأت لهم المقادير عملا آخر غير التعليم، إنما أتيح لهم غير قليل من أسباب الصلة بالعلم والتعليم، فهم يستشعرون هذه الصلة فى بيوتهم حين يلمسون أبناءهم صادرين عنها إلى مدارسهم، أو عائدين إليها من تلك المدارس، وهم يستشعرون هذه الصلة حين يتاح لهم أن يرشدوا أبناءهم إلى الاستذكار. وما يدخل فى بابه من إيحاء يدفعهم إلى الإقبال على دروسهم فى شغف وحب، وإشراق وجه، ورحابة صدر .. ونحن إذن — من هذه الناحية على الأقل — نستطيع القول بأن لنا بعض خصائص «المعلم» وإن لم يهيئ لنا طبيعة حياتنا أسبابا من عمله، ففى أكناف ذلك - أعتقد أنى لن أكون غريبا عن «المعلم» حين أزجى إليه رسالتى التى أدين بها وأطمئن إليها.

وإنه ليلوح لى أن رسالتى لن تعدو كلمات هى على إطلاقها بسيطة كبساطة الطبيعة ولكنها فى تأثيرها قوية كقوة الحياة ..

أحب للمعلم أن يقبل على الشعر، فما أكره له ألا يقبل على الشعر، فإن الشعر رسالة من رسالات الروح، وما أحرى المعلم أن يتأثر روحانية هذه الرسالة فى حياته مع نفسه وفى حياته مع تلاميذه، حتى يكون إنسانا لخصائص الإنسانية، وله ميزاتها الجديرة بالإعجاب.

ولست أرى كالشعر متاعا يرضى عنه الوجدان وتطمئن إليه القلوب ، وتصمد إلى خلجاته النفسية متى أرهقتها الحياة ، أو شغلتها بهذه الشواغل المادية التي لا حصر لها .

إنه يلهم الإنسان معرفة الجمال المثالي ، ومعرفة الجمال النفسي ، ومعرفة الدنيا من جانب هادئ وديع قليل الصلة بما يقوم عليها من صخب الآراء المعقدة ، وضجيج النظرات الملتوية وإنه ليوحي إلى النفس — إلى جانب ذلك — فيضاً من رقة الشعور ، ودقة الأحاسيس وإن لها في هذا الفيض ما يغنيها عن الزام موقف الضيق حين تلبس الحياة أجنادها ثوباً من أثوابها السوداء ، أو حين تطل الحياة على واحد من بنيها لا من نوافذ الفردوس ، وإنما تطل عليه من نوافذ الجحيم . .

إن ترديد الشعر ، هو ضرب من ترديد الأغنيات ؛ ولعل « المعلم » ككل فرد من هذا الجيش العاملي الزاخر ، يعلم ما لترديد الأغاني من أثر في قهر التفكير المظلم ، وفي انبعاث نشوة من الفرح الشامل ، تستقر النفس على صفحته فلا يحتويها حزن ثقيل أو خفيف ، وإذا كانت هـذه ميزة من ميزات الشعر ؛ فهي ليست كل ميزاته بلا ريب ، ذلك أن له أثراً في تعويد الإنسان حياة التأمل ، لأن الشاعر حين يطلق شعره إلى باحة الضوء ، إنما يلقه في أغلفة من تأملاته ومن تجاريبه ومن نفسه ؛ ومن هـذه الأغلفة التي تشغل ألباب الأحياء جميعاً ، ثم هو يدفع هذه الأفراج كلها في قصيدة — طويلة كانت أو قصيرة — ولكنها مع ذلك مزدحمة بضروب من الحكمة والوصف والمواقف والنوازع والتطلعات ، فما يكسبه قارئ الشعر إذن لا يقاس إلى جانبه ما يكسبه من النثر حين يقبل عليه أعواماً وأعواماً .

إن موسيقى الشعر تهدي قارئه إلى حفظه ، وإلى التماس معانيه ، ثم هي تجير على نسيانه ثوب النسيان ، أعني أن الشعر إذا ما استقر في وعي قارئه قلما يفلت من ملكة الحافظة أو يعدوها ، والشعر — من أجل ذلك — يسعف الإنسان بالحجة الحاسمة والرأي الأخير .

فأنا أحب للمعلم إذن أن يقبل على الشعر الخالص لتثقيف روحه تثقيفاً يقدم إليها أقرب الصور إلى الطبيعة والحياة ، وأنا أحب للمعلم أن يكابد الشعر إن تهيأت له سليقة تناصحه مطاوعة ، فإن رسالة الشعراء هي رسالة الخلود ، ولكنني لا أحب له أن يلتمس متاعه من الشعر في هـذه التفاهات التي ينصرف إلى إحيائها شعراء لا كالشعراء . . . وإنما أحب له أن يلتمس متاعه في شعر أصيل يتحدث له عن الحياة الاجتماعية حديثاً فيه غناء وجدوى .

إن دراسة المحفوظات الشعرية في المدارس حجة ناهضة بسداد ما ذهبت إليه من توجيه المعلم وجهة السعي وراء الشعر حفظاً ، كان أم قرضاً ، وإن هذه القصائد التي تدبجها صحيفة التعليم الإلزامي لجماعة من المعلمين الشعراء لدليل قوي الدلالة على أني حين أهبت بالمعلم أن يقبل على الشعر إنما تقدت إلى موطن من نفسه ، هو أقرب المواطن إلى ميوله وعواطفه .

محمد مصطفى الماحي